

مات أهلي

لجبران خليل جبران

أصدرت مجلة الفنون الغراء عدداً حافلاً سمته (عدد سوريا المنكوبة) جمعت فيه مقالات
وقصائد لخيرة كتاب المهجر وزينته بالرسم الجميلة . فرأينا أن ننقل عنها هذه المقالة البديعة

مات أهلي وأنا قيد الحياة اندب أهلي في وحدتي وانفرادي
مات احبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم
مات أهلي واحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي وأنا ههنا أعيش مثلما
كنت عائشاً عند ما كان أهلي واحبائي جالسين على منكبتي الحياة وهضبات بلادي
مغمورة بنور الشمس

مات أهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بجد السيف ، وأنا في هذه
البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون الماء كل الشية والمشارب
الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون الايام والايام تضحك لهم
مات أهلي أذل ميتة ، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المستبنة
على مرشح نفسي

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين لكانت
الايام أخف وطأة على صدري ، والايالي أقل سواداً أمام عيني . لان من يشارك أهله
بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العالوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفخر بنفسه
لانه يموت بريئاً مع الأبرياء

ولكنني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت
نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمانينة وخمول
السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن افتخر بشيء حتى
ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعري ، ما ذا ينفع نذب الشاعر ونواحه !
لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكنت الطفل الجائع يلتقطني
ويزيل بجباتي يد الموت عن نفسه
لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكنت المرأة الجائعة تتناولني وتتضمني طعاماً
لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي
ظل القبر عن جسده
ولكن ، واحرق قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا ثمرة
يانعة في اودية لبنان . وهذه هي نكبتني . هذه هي نكبتني الصامته التي تجعلني حقيراً
أمام نفسي وأمام اشباح الليل
هذه هي المأساة الموحجة التي تعقد لساني وتكبل يدي ثم توقفني بلا عزم ، ولا
ارادة ، ولا عمل



يقولون لي — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي
اهرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في اودية
الارض وسهولها

نعم . ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة بلادي جريمة جبلت بها
رؤوس الافاعي والثعابين — نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد
لو نار قومي على حكمهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت أن الموت في سبيل
الحرية لا شرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الابدية والسيوف في يده
كان خالداً مخلود الحق

لو اشتركت امتي بحرب الامم واقترضت عن بكرة ابيها في ساحة القتال لقلت
هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت اقدام
العواصف لا شرف منه بين ذراعي الشيخوخة
ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهير بلادي صدراً وغمر التراب اهلي واحبائي

لقلت هي النوايس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر فمن الجمالة ان نحاول
ادراك اسرارها وخفاياها

ولكن لم يمّت اهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزوال
بلادهم فانقضوا مستسلمين

مات اهلي على الصليب

ماتوا واكفهم ممدوة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء
ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم
ماتوا لانهم لم يجبوا اعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين
ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين ، ماتوا لانهم لم يظالموا الظالمين ، ماتوا لانهم كانوا

مسالمين

ماتوا جوعاً في الارض التي تدر عسلاً ولبناً

ماتوا لان الثعبان الجهنمي قد النهم كل مافي حقولهم من المواشي ومافي اهرامهم
من الاقوات

ماتوا لان الافاعي اولاد الافاعي قد تنفسوا السموم في الفضاء الذي كانت
تملؤه انفاس الارز وعطور الورود والياسمين

مات اهلي واهلكم ايها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمّت منهم ؟
ان نواحنه لايسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم

اذن ماذا نفعل انتقدهم من الجوع والشدة ؟ هل نبقى مرتابين ، مترددين

متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغارتها ؟

ان العاطفة التي يجعلك ، يا اخي السوري ، ان تعطي شيئاً من حياتك لمن

يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة النضية

التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية